المركز الموريتاني للدراسات والبحوث الإستراتيجية

(وحدة الدراسات السياسية والاستراتيجية)

سلسلة: أوراق استراتيجية

# الطوارق: قصة شعب يعشق الحرية

## تمهيد:

أعادت الأحداث الأخيرة في إقليم أزواد "قضية الطوارق" إلى واجهة الأحداث بعد عقود متراكمة طُمرت خلالها القضية والشعب في غياهب التجاهل والنسيان، وعانى خلالها سكان الإقليم من تنكر الأشقاء وجفاء الأصدقاء وسطوة الغرباء، غير أن عشق الحرية وإرادة الحياة الكريمة ظلت حافزا قويا يلهم أبناء الإقليم التضحية والعطاء في سبيل قضيتهم العادلة.

وتأتي هذه الورقة المقتضبة محاولة متواضعة لإلقاء أضواء كاشفة على زوايا ومحطات معتمة من تاريخ هذا الشعب العريق بتقاليده الحضارية وتجذره العميق قبل أن تقلب صفحات مختلفة من جهاده العسكري العظيم ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم والثمن الذي تكبده في سبيل الاستقلال ثم نقف على طرف من نضاله المدني قبل العسكري في سبيل نيل حقوقه والاعتراف بخصوصيته الاجتماعية والثقافية ولجوئه بعد ذلك إلي امتشاق السلاح في وجه الحكومات المتعاقبة والتي لم تر في أولئك القادة المقاتلين أكثر من "لصوص مسلحين" رهنوا أنفسهم ومصالح شعبهم لأجندات أجنبية مشبوهة، وهو ما ولد مشاعر مختلفة من المرارة والإحباط لدى أبناء الإقليم ورسَّخَ القناعة لديهم بحتمية خيار الانفصال وتأسيس كيان مستقل خاص بهم. وهو المسعى الذي تحفه مخاطر جمة، ليس أقلها ممانعة المحيط الاقليمي وخصوصا تلك التي تضم أقليات من الطوارق، إضافة إلي مخاوف بعض الأطراف الدولية الغربية تحديدا من قيام إمارة إسلامية منغلقة تستنسخ تجربة "طالبان الأفغانية" وتشكل حاضنة دافئة لتفريخ الإرهاب وزعزعة الأمن الدولي الهش أصلا.

## أ -أحفورة التسمية:

أزواد أو أضواد[1] كما يكتبها و يلفظها البعض كلمة طارقية تعني الأرض البيضاء المستوية والتي لا سواد فيها وتقابل في العربية كلمة القفر .

تشكل ثلثي مساحة الأراضي المالية، تمتد انطلاقا من الشمال الماي لتشغل الحدود المطلة علي كل من موريتانيا والجزائر والنيجر وبوركينا فاسو وتشغل مساحة تناهز ثمانمائة وخمسين ألف كلم مربع (850.000 كلم$^2$) من أصل المساحة الإجمالية للدولة المالية التي تبلغ (1241021) كلم$^2$.

يَسكن تلك المنطقة شعب جلد ولكنه ودود عشق الحرية كلفه بالصحراء، يسميه الأغيار الطوارق ويسمي نفسه (إمازغن ـ إيماشغن ـ إيموهاغ).

وتختلف الروايات بل وتتضارب أحيانا حول منشأ تسميتهم بالطوارق ومعناها والافتراضات التاريخية المتعلقة ببداياتها بين المؤرخين والباحثين المهتمين بهذا الشأن عدا الاختلافات بين أبناء الأرومة أنفسهم بهذا الخصوص وقد أوصل الباحث همام هاشم الألوسي[2] تلك الروايات إلي 14 رواية وتخمينا حول أصول اشتقاق التسمية والذي يترجح عندنا هو ما ذهب إليه وأيده المؤرخان الطارقيان موسي بن شداد وعتيق بن انجابنان من كون تلك التسمية (الطوارق) قد أطلقت حديثا ـ نسبيا ـ على الملثمين من أبناء القبائل التي كانت تحكم القوافل من الصحراء خلال العصور الوسطي عندما نشطت التجارة بين شمال افريقيا وجنوب الصحراء ونعني أسواق الذهب والعاج إضافة إلى الرقيق في غرب إفريقيا وبالأخص في مناطق تبمكتو وغاو وجني وولاته وذلك ، وذلك عندما كان تجار العرب والبربر من سكان شمال افريقيا يجتازون بلاد الملثمين في قلب الصحراء إلى تلك الأسواق من بلاد السودان لمقايضة سلعهم بما يحتاجون إليه من البضائع الإفريقية

---

[1] موسي الإدريسي: الطوارق ـ بحث مخطوط 1992.

[2] همام هاشم الأولوسي: الطوارق الشعب والقضية، دار أبي رقراق ص91.

وكانت مهنة التجارة في تلك العصور مهنة صعبة لا يقوم بها من الرجال إلا من كانوا على درجة عالية من الشجاعة والإقدام مع ركوب الأخطار والأهوال في مسالك تجارتهم لانعدام الأمن وغياب سلطان الدولة حيث يسود ما يشبه شريعة الغاب بين قبائل وأقوام مردت على السلب والنهب في أغلب أحيانها في هذه الحقبة التاريخية التي نشطت فيها التجارة بين الشمال والجنوب كان الملثمون يتواجدون في قلب الصحراء الكبرى حيث تمر بهم تلك القوافل التجارية جيئة وذهابا إذا وصلوا إلى أطراف بلاد الملثمين أوجب عليهم سوء الحالة الأمنية في الصحراء آنذاك البحث عن البديل والحامي لقوافلهم وكان يسمون هذا الدليل والحامي : الطارقي ويقصدون به الطريقي أو الطرقي والنسبة هي إلي الطريق وقد جاءت النسبة خلاف القياس الصرفي لكلمة الطريق لجهلهم بقواعد اللغة العربية -ربما- وهناك رواية أخرى تقول إن الطارقي جاء نسبة إلى الطارق وهو من يطرق القوم ليلا من التصريف اللغوي (طرق يطرق طرقا) وعلى كل حال فهذا الاسم الذي أطلق على الملثمين تزامن مع عصر القوافل التجارية مما يؤكد أن أصحاب تلك القوافل من العرب هم الذين أطلقوه على الملثمين لاشتغالهم بهذه المهنة وهي حماية القوافل في طرق الصحراء ومن الضياع فيها حيث يعرف عنهم خبرتهم في تحديد مسالك الطرق عن طريق تقصي النجوم وكانت مهنة تستوي فيها جميع القبائل وجميع الأجناس بغض النظر اختلاف ألوانهم أو أماكنهم .

وقد غلبت هذه التسمية على غيرها من المسميات والألقاب الأخرى التي حملها أبناء هذه المجموعة خلال حقب تاريخية مختلفة حتى وقع تبنيها رسميا من قبل القادة السياسيين والقبليين حيث صدر زعماء الطوارق مطالبهم في المذكرة الشهيرة التي أصدروها عام 1990 إبان مفاوضاتهم مع الحكومة المالية بعبارة "نحن طوارق مالي".

## مجد غابـر:

بعد حفريات أثرية مكثفة أجرتها في واحة "أبالسا" بمنطقة "الهقار" التي تبعد 100 كلم غرب مدينة " تمنراست" الجزائرية تمكنت بعثة فرنسية ـ أمريكية مشتركة من تحقيق كشف أثري هام خلال عم 1925 وضع حدًا نهائيا لسيل جارف من التخمينات والتكهنات حول حقيقة ما اعتبره البعض وحتى حينه مجرد أسطورة أمازيغية أقرب إلى "الميثيا" منها إلى الحقيقة التاريخية أو الانتروبولوجية الثابتة تمثل ذلك الكشف في العثور على موقع دفن الملكة تنهينان أو (تي- تون حنات) (بحسب مصادر أخرى حيث ترقد مومياؤها محاطة بحليها الذهبية والفضية ولباسها الجلدي المميز وقد مكنت التحاليل المخبرية التي أجريت عليها لاحقا من قبل الباحثة الفرنسية ماري كلار شاملا)[1] من الوقوف على عديد الأسرار الخاصة بتلك الملكة الأسطورية لعل من أهمها عرجها وهو ما يؤكد الخبر الذي ساقه ابن خلدون قبل قرون في "ديوان العبر" عند حديثه عن تاريخ البربر وممالكهم ووجود امرأة عرجاء قوية الشكيمة هي سلف لكل الرجال الملثمين (يعني الطوارق، كما أكدت الاختبارات الخاصة بعنصر النتروجين أن هيكلها العظمي يعود إلى القرن الخامس الميلادي وهي الفترة ذاتها التي يؤكد مؤرخوا الصحراء وصول تنهينان رفقة خادمتها أو أختها (حسب بعض قبائل الطوارق من الحلفاء) تاكاما أو تاكامات إلى واحة "أبالسا" قادمتين من " تافيلات" جنوب المغرب الأقصى وقصة هذه المجيء وما اعقبه من أحداث شكلت علامة فارقة في تاريخ ذلك الشعب حين تحولت تلك الملكة إلى رمز اسطوري أشبه بالأيقونة جسد وحدة الطوارق بل والأمازيغ بصورة عامة ومدي قدرتهم على صنع التاريخ وديمومة التجدد الحضاري وبعث الأمجاد الغابرة ، يقول عنها الكاتب والباحث الجزائري مراد الطرابلسي[2] "تنهينان هي ملكة قبائل الطوارق وقد حكمت في القرن الخامس الميلادي وإليها يستند الطوارق في تنظيمهم الاجتماعي

---

[1] همام هاشم الألوسي، ص39 ـ مصدر سبق ذكره.

[2] مجلة البيان العدد 179 إبريل 2007.

الذي يستمد السلطة حتى الآن من حكم المرأة وتقول الروايات التاريخية بأن اسم تنهينان مركب من جزئين (تين-هينان) وهي لفظ من لهجة "التماهاك" القديمة وتعني بالعربية (ناصبة الخيام). لذلك رجح المؤرخون أن تكون كثيرة السفر والترحال وهي حسب تلك الروايات سيدة ممشوقة القد كانت حكيمة وقائدة بارزة ولها قدرة سحرية على التأثير في من تخاطبه قدمت ذات زمن من منطقة "تافيلالت" الواقعة بجنوب المغرب الأقصى حاليا برفقة خادمتها "تاكامات" وعدد من العبيد لتستقر بقافلتها الصغيرة في منطقة الأهقار[1] الجبلية على نحو 2000 كلم جنوب العاصمة الجزائرية بعد رحلة متعبة وشاقة مليئة بالمخاطر.

والأهقار كان يسيكنها قوم "الاسباتن" المعروفون بخشونة طبعهم وخصوصية لباسهم المشكل من جلود الحيوانات وبعبادتهم للأوثان، كما عرفوا بالتحدث بلغة جد قديمة تكتب بحروف تسمي "التيفناغ" تعبر عن أصولهم المنحدرة من سيرونيك بليبيا وتمكنت بحكمتها وخبرتها وأيضا بأخلاقها النبيلة[2] من كسب ود هؤلاء السكان حتى اعتمدوا نهجها في الحياة واعتمدت هي تقاليدهم فحدث العناق بين عبقرية المرأة وشجاعة أهل البلد وشيدت مملكة كبيرة مزدهرة وكانت مناطق واسعة من الصحراء أراضى خصبة تتخللها جداول وأودية يتدفق منها الماء على مدار السنة وتمتد بها مساحات كبيرة من المروج دائمة الخضرة ترعي فيها الحيوانات المختلفة وتدل على ذلك النقوش الموجودة على الصخور وداخل الكهوف وينسب أبناؤها إلى السلف الأميسي أي قبائل الطوارق النبيلة.

---

[1] أورد ابن خلدون في ديوان العبر بأن هقار هو ابن الملكة تنهينان وقد أطلق اسمه علي تلك المنطقة وأنه كان أول من غطي وجه من الطوارق فتبعه قومه اقتداء به وظلوا علي ذلك الحال إلي اليوم.

[2] يَعتقد الكثير من الطوارق أن ملكتهم كانت رائعة الجمال حيث وظفت جمالها ـ كما يزعم البعض ـ لتسيطر سياسيا علي منطقة نفوذ واسعة إضافة إلى المزايا التي ذكرت سابقا مما بوأها المكانة الخاصة التي احتلتها في قلوب شعب الأهقار وهو ما يفسر أيضا جزءا كبيرا من التقاليد المتعلقة بانتقال صفات النبل عن طريق النساء في المجتمع الطارقي إلي حد أن الأطفال في العائلات النبيلة ينسبون لأمهاتهم وليس لآبائهم كما هو الشأن في المجتمعات الإنسانية الأخرى.

ولا تورد المصادر التاريخية أخبارا موثوقة عن نسب تلك الملكة أو أصولها العرقية عدا حكمها وانصهارها في قبائل "الأمزاد" التي تؤكد عديد المراجع انحدار جميع فروع قبائل الطوارق منها على اختلاف تشكيلاتها الموزعة حاليا بين مالي وتشاد والنيجر والجزائر وليبيا[1].

ليست تنهينان ومملكتها العظيمة هي كل ما يفخر به الطوارق من مجد مؤثل فهم يعتزون كذلك بانتمائهم للحركة المرابطية الإصلاحية التي انطلقت شرارتها المباركة الأولى من صحراء الملثمين خلال القرن الخامس الجهري (5 هـ). يقول المؤرخ الطارقي موسي الإدريسي معلقا: "ويتواتر في الروايات التاريخية الأهلية أن حركة الإصلاح التوحيدية المرابطية كانت قد تأسست بهذه المنطقة تحت رعاية الأمير إبراهيم آق يحي الكيدالي، والزعامة الروحية للعلامة عبد الله وانين الجزولي ومنذ الفتح الإسلامي كانت المنطقة تحت سلطة الأمراء الوراثيين والمنتخبين من الاتحاد القبلي المحليين أو ضمن الممالك أو الدول التي كانت تتحالف معها محافظة مع ذلك على استقلالها الذاتي ومن هؤلاء الأمراء كان يتوجب أن يختار المنتخب أو المعني من ضمن المؤهلين علميا وفكريا وحنكة عسكرية وسياسية حسب تقاليد نظام التولية المعروف في الدولة المرابطية وهو تقليد ما زال ساريا إلى اليوم".

كما شكلت الحواضر الطارقية (تادمكه) و(تبمكتو) بعلمائها ومحاظرها وزواياها الصوفية مصدر إشعاع علمي وحضاري متميز في غرب القارة الإفريقية يضاهي حواضر ولاته وشنقيط، إضافة أدوراها الاقتصادية حيث كانت ملتقي للقوافل التجارية القادمة من مدن الشمال الافريقي إلى أسواق الذهب والعاج في ممالك السودان جنوب الصحراء، حيث عاشت مملكة (تادمكه) التي

---

[1] ليس هناك إجماع بين المؤرخين والإنتروبولوجين بخصوص الأصول العرقية للطوارق فهناك من يرجعهم إضافة لما ذكرنا إلى أصول أمازيغية بربرية مع وجود اختلاف أيضا حول أصول البربر الهندو -أورربية أو السامية .. ويؤكد آخرون على أنهم من الهنود الحمر سكان أمريكا الشمالية الأصليين ، حيث كانوا يشكلون معهم شعبا واحدا قبل انفصال أراضي القارتين الأمريكية والافريقية عن بعضهما البعض بفعل التصدعات التي حصلت في قشرة الأرض في عصور جيولوجية قديمة ، وهناك من أرجعهم إلى بقايا شعوب قديمة تعود إلى العصر الحجري حيث تبني هذه النظرية بعض علماء الآثار ممن اكتشفوا رسومات وكتابات بلغة "التيفناغ" منقوشة على كهف بصحراء التاسيلي الجزائرية تعود إلى ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد، إضافة إلى روايات أخري ... ليس هذا مقام الاستطراد والتفصيل فيها.

تأسست في القرن الأول الهجري أزيد من ألف سنة حتى خربها ملك السونغاي (سوني البير) خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

لم يعرف الطوارق منذ اعتنقوا الإسلام ـ إذا ما استثنينا التجربة المرابطية التي لهم المكانة المرموقة في قيادتها العليا بمستوياتها المختلفة الروحية والسياسية والعسكرية ـ قيام كيان سياسي موحد يرقي إلى مستوى الدولة التي تتمتع بمقومات الاستمرارية والبقاء وسط محيط سياسي واقليمي متقلب، ولجئوا عوضا عن ذلك إلى إقامة كيانات قبلية مستقلة تسمي السلطنات جري تقطيعها أسس جغرافية وطبيعية أكثر منها بشرية وسياسية حيث تغلب على بعضها عناصر قبلية من المكونات العرقية الموجودة في الإقليم من غير الطوارق[1] .

وقد أورد المستكشف بول مارتي[2]، والذي كان طليعة للاستعمار الفرنسي أسماء هذه السلطنات علي النحو التالي: سلطنة أفوغاس – سلطنة اللمدن –سلطة الأنصار أوكل انتصر– سلطنة لبرابيش –منطقة كنته – سلطنة الفولان– مملكة السونغاي.

وجميع هذه السلطنات كانت تضم عشرات القبائل المنضوية تحت لواء القبيلة الحاملة لاسم السلطنة. لم تكن العلاقة ودية دائما بين هذه السلطنات إذ كثيرا ما تنشب بينها الحروب والنزاعات على مناطق النفوذ والمنافع الاقتصادية مثل حرب (افطرون) التي اندلعت بين بعضها خلال القرن التاسع عشر الميلادي .

وظل الأمر علي تلك الحال من التمزق والفرقة بين أبناء الشعب الواحد وحتى دخول الاستعمار الفرنسي إلي المنطقة أواخر القرن 19م.

---

[1] تتعايش داخل إقليم أزواد إلى جانب الطوارق قوميات وأعراق مختلفة تضم العرب والسونغاي والفلان والبمبرا .

[2] بول مارتي : (البرابيش بنو حسان ) دمشق 1985 ـ تعريب محمد محمود ولد ودادي.

**الطوارق في مواجهة الاستعمار الفرنسي**

شكل الطوارق رأس الحربة في أعمال المقاومة العسكرية التي قادها أبناء المنطقة في وجه الغزو الاستعماري الفرنسي الذي يرجح أن يكون قد تم ابتداءا من 1893م تاريخ وصول قوافل المرتزقة التابعة للفرنسيين إلى نواحي تمبكتو ومع استكمال اجتياحها للمدينة 1894 جوبهت تلك العملية[1] بمقاومة مستميتة من طرف الطوارق تكبدت فيها القوات الفرنسية أعدادا كبيرة من القتلى لا تزال قبورهم في المدينة شاهدة على بسالة المقاومة التي تعرضوا لها وهي الانتصارات التي رفعت من الروح المعنوية للمقاومين ودفعتهم لإعادة الكرة والالتحام بالغزاة في واقعة (تاكوبا) 1895 بالقرب من تبمكتو وتمكنوا من اغتيال قائد القوات الفرنسية العقيد (جوفر) وهي العملية البطولية التي قادهم زادت من حنق الفرنسيين ودفعتهم للانتقام من رجال المقاومة واغتيال مائة منهم على الأقل في معركة (تيت) ولم يتأخر رد المقاومة كثيرا إذ سرعان ما أعاد الرجال الزرق تنظيم صفوفهم وتعززت قواتهم بانضمام كتيبة من المقاتلين الليبيين جاءت لمؤازرتهم إضافة إلى الثائر الطوارقي الشهير (محمد كاوصن) والتقي الطرفان ببئر العلالي سنة 1902م وقد تكبدت القوات الفرنسية خسائر فادحة في الأرواح قبل أن تجبر قوات المقاومين علي الانسحاب.

ومع نهاية العام1903 استكملت القوات الفرنسية توغلها داخل منطقة آدرار أكبر وأهم أقاليم أزواد لتحكم بعد ذلك سيطرتها علي كامل الأقاليم.

ولم تكن تلك نهاية المعركة بل إن أعمال المقاومة قد استمرت في سائر مناطق الإقليم ومن مختلف المكونات العرقية والقبلية ولا يزال الآزاوديون يذكرون بفخر الأعمال البطولية لمقاومين أشاوس حبروا بدمائهم الزكية سفر العزة والكرامة وغدوا رمزا للحرية والتضحية لا لبني جلدتهم وحسب وإنما للأحرار في كل مكان من أمثال: سلطان قبائل (والليمدن كل ، أطرم ) السلطان عبد

[1] همام هاشم الألوسي ـ مصدره سبق ذكره.

الرحمن تاقامه وكذلك فعمرون بن الأنصار ، السلطان آمود ، الشيخ محمد عالي الأنصاري المعروف بأمير الطوارق المختار كودو كو أحد أبرز مشاييخ قبائل إيكزكزن، الخوريد بن المرقني المجاهد الليبي: تاقامات إضافة إلى الثائر الشهيد محمد كاوصن هذا الأخير الذي قاد حرب عصابات أرهقت الفرنسيين ، امتدت من ليبيا إلي النيجر، إضافة إلي أزواد إذ قاد رجاله كما يقول هاشم الألوسي[1] من بلدة (واو) بجنوب ليبيا وضمت قواته رجالا من قبائل طارقية وعربية ليبية، واتجهت أولا إلى مدينة آقدز في النيجر حيث فوجئت القوات الفرنسية بقوة هذه الحملة وحاولت التمترس خلف حصونها في المدينة إلا أن كاوصن حاصرها حصارا شديدا مكنه بعد ذلك من الدخول إليها ، فساعده نجاحه في هذه العملية على البطش بالفرنسيين وأعوانهم في المناطق المحيطة بأقدز وبسبب شيوخ أخبار انتصاراته على المحتلين قام العديد من شيوخ وزعماء الطوارق بالانضمام اليه والتعاون معه، واستسلم الفرنسيون لفترة قبل أن يعدوا عدتهم ويجمعوا قواتهم وقوات زعماء القبائل المتحالفين وبعد معارك ضارية مع قوات كاوصن تمكنوا من دخلوا المدينة ليرتكبوا مذابح فظيعة ضد سكانها ومن بينهم علماء وفقهاء مثل بجثثهم من قبل القوات الفرنسية غير أن كاوصن تمكن من الإفلات ليواصل مناوشاته معه رفقة من تبقي من رجاله وبمساندة حلفائه من شيوخ قبائل إيكزكزن وازغرن، وافوغاس ، وكل أغاروس وأكدالى وقبائل عربية أخري من أهالي أزواد واستطاع تكبيد الفرنسيين العديد من الخسائر في الأرواح والأعتدة قبل أن يتمكن بعض عملاء الفرنسيين من أسره ثم قتله في ( واحة أم العظام )، وبمقتله انتهت حياة أحد أبرز ثوار ومقاتلي الطوارق مما فتح الباب واسعا أمام الفرنسيين لتوطين سلطتهم في الإقليم وممارسة جرائم بشعة في حق أبناءه شملت إعدام المئات وتشريد آلاف الأسر والزج بعشرات المقاومين في سجون سلطات الاحتلال الفرنسي.

وإجمالا فقد اتسمت أوضاع الأزواديين تحت الاحتلال الفرنسي بالتردي وسوء المعاملة وعكست في جانب منها طبيعة العقلية الاستعمارية ونظرتها الاستعلائية إلى الطوارق عندما لخصها

---

[1] همام هاشم الألوسي : مصدر سبق ذكره.

الحاكم الفرنسي للإقليم جان كلوزيل بقوله[1] : "لا بد أن لا يخرج الطوارق من إطار يختلف عن حديقة الحيوان "وهكذا تمثلت أولى خطوات هذا المخطط الاستعماري المخاتل الساعي إلي ترويض الطوارق وتحويلهم إلى حيوانات داجنة في العمل على إقصاء القيادات القبلية والعشائرية المناوئة للاحتلال الفرنسي واستبدالها بصنائع تأتمر بأمره بهدف القضاء على تقاليد الولاء للقبيلة وآصرتها المترسخة عبر مئات القرون للحيلولة دون أية إمكانية للثورة أو التمرد شعبيا وتمثلت ثانيها في حرمان ساكنة الاقليم من وسائط التنمية وإهمال البني التحتية حتى يبقي الأزواديون خارج الدورة الطبيعية للتطور البشري وفاء لمقولة (كلوزيل) السابقة وهو التجاهل المقصود الذي عبرت عنه بمرارة مذكرة قادة الطوارق الشهيرة بالقول[2] إن الإدارة الاستعمارية لم تساهم في تنمية المنطقة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وتفادت تغيير نمط حياة السكان كي يبقوا جهلة وأسري لتقاليدهم وبالفعل فإن أية مدرسة جديرة بهذا الاسم لم تؤسس وذلك يفسر أن إرسال الأطفال إلى المدارس الذي قرر سنة 1926 لم يبدأ إلا سنة 1947 وكان مستوى الدراسة المسموح به هو الشهادة الابتدائية".

لقد أدت الممارسات الممنهجة لهذه السلطات إلى ضرب طوق خانق من العزلة على أبناء المنطقة مما فاقم من الأوضاع الاقتصادية والمعيشية للسكان إضافة إلى الاستنزاف المستمر للمواردها الطبيعية، وإلحاق أضرار بيئية وبشرية بهما جراء قيام فرنسا سنة 1958 جراء قيام فرنسا باختبارات تفجير قنبلة ذرية في منطقة الحدود الجزائرية- المالية مما تسبب في مقتل العشرات ونفوق آلاف الرؤوس من الماشية إضافة إلى التشوهات الجينية التي استمرت لفترات طويلة جراء انتشار الإشعاع الذي عبر مساحات واسعة من أراضي الإقليم مما خلف استياء إقليميا ودوليا واسعا تسبب في حرج أخلاقي بالغ للفرنسيين انضاف إلى إخفاقاتهم العسكرية على الساحة الجزائرية تطلب محو آثاره

[1] مذكرة قادة الحركة الأزوادية الصادرة سنة 1990 إبان المفاوضات مع الحكومة المالية.

[2] نفس المذكرة.

تقديم تنازلات غير مسبوقة سعي الفرنسيون من خلالها إلى إعادة خلط أوراق اللعبة في المنطقة مجددا على أمل استعادة زمام المبادرة التي أفلتت منهم بفعل تصرفاتهم الرعناء.

**جمهورية الطوارق**

قد يجهل الكثيرون أن فرنسا التي تسعي الآن رفقة دول إقليمية أخرى إلى إجهاض مشروع الدولة الوليدة لتوها في آزواد هي نفسها التي عرضت عليهم قبل خمسين عاما فكرة تأسيس كيان مستقل لهم تحت مسمى "جمهورية الطوارق أو "جمهورية الصحراء" وذلك خلال احتفالاتها بعيدها الوطنى في 14 يوليو 1958 حين قامت بدعوة وفد مختلط من أبناء الإقليم ضم عربا إلى جانب طوارق حيث عرض عليهم الفرنسيون اقتراح اعلان رغبتهم في الاستقلال المنفرد تحت الحماية الفرنسية مع إبداء استعداد فرنسا الكامل لتوفير كل الوسائل الكفيلة بإنجاح المقترح بمجرد إبداء الرغبة غير أن الوفد المذكور كان يفتقر إلى الانسجام والتنسيق الكافي كما لم يكن مخولا فيما يبدو للحسم في مثل هذه القضايا الكبيرة وهو ما عكسته بعض الأجوبة والردود المتناقضة المقدمة من الوفد والتي تراوحت بين الرفض المطلق للفكرة من حيث المبدأ إلى القبول باعتبار أن فرنسا هي الأم ونحن أبناؤها.

وشملت حدود الدولة المقترحة اقتطاع أراضي من ست دول هي في أغلبها مستعمرات فرنسية حيث ضمت جزءا من شرق موريتانيا (منطقة الحوض) وجنوب الجزائر وشمال مالي وشمال النيجر والجنوب الغربي من ليبيا والشمال الغربي من تشاد ، وتجددت المحاولات الفرنسية الرامية إلى التسريع بهذا المخطط وعلى أرفع المستويات السياسية حين تولي الرئيس ديغول بنفسه قيادة دفة المفاوضات ابتداء من العام 1960 واستكمال المساعي التي بذلها قبل سنتين بخصوص الموضوع حيث اتصل بالقادة المحليين للطوارق وعلى رأسهم سلطان "الهقار" على الحدود الجزائرية المالية

(باي أخاموخ) وقد حاول استمالته بقوله[1]: "إذا خرجت فرنسا سيستعمركم العرب الجزائريون وسيسيطرون عليكم لذا نخيركم بين قبولكم البقاء مع فرنسا التي ستعاضدكم في تأسيس دولة خاصة بكم مؤكدين لكم تعهدنا الكامل بالبقاء إلى جانبكم دوما".

وبالفعل فقد تحكم تحطمت آمال فرنسا تلك وطموحاتها الاستعمارية في تقسيم المنطقة وبلقنتها على يد صخرة الرفض الطارقي المنطلق من وعي طني عميق ومسؤول بأبعاد ومرامي المخطط الفرنسي الساعي إلى تطويق الثورة الجزائرية وتفجيرها من الداخل عبر اللعب على الورقة الإثنية وهكذا فإن الطوارق الذين دعموا الثورة الجزائرية معنويا وأمدوها بألفي مقاتل دعما لاستقلال الجزائر يرفضون اليوم طعنها من الخلف والتآمر ضدها مع المحتل عبر اقتطاع جزء من أراضيها في الوقت الذي يسعي فيه رجالها لطرد هذا المحتل وتخليص البلاد منه صونا لكرامة الأمة الجزائرية وحفاظا على وحدة وسلامة أراضيها وهو الرفض الذي سيدفع الطوارق فاتورته لاحقا عقودا من النسيان والتهميش والإقصاء والقهر على اختلاف صنوفه.

**الاستقلال.. خيبة أمل**

في العام 1960 حصلت مالي حيث يقيم العدد الأكبر من الطوارق على استقلالها، وتوقع الطوارق كمكون وطني هام قدم آلاف الشهداء والضحايا إلى جانب إخوانه من فئات الشعب المالي الأخرى في انتزاع ذلك الاستقلال ـ أن يحظوا بالمكانة اللائقة بهم ضمن الكيان الوطني الناشئ، وكم كانت مفاجأتهم كبيرة حين قلب نظام الرئيس (موديبوكيتا) ظهر المجن ونكث بالوعود التي أطلقها لهم مع غيره من الوطنيين الماليين قبيل الاستقلال وبدأ يتصرف وكأنه رئيس لشريحة أو فئة اجتماعية بعينها، يسعي لحمايتها ورعاية مصالحها فيما يهمل أو يتجاهل حقوق ومصالح باقي المجموعات الإثنية الأخرى وعلى رأسها الطوارق وتباعا تكشفت نزعته الطائفية المشبوبة بمشاعر الزنوجة

[1] الألوسي: مصدر سبق ذكره.

المتطرفة المعادية للطوارق والتي تشبههم بالرجل الأبيض (المستعمر الفرنسي) رغم ما أشيع عن ميول الرجل اليسارية التقدمية العابرة للقوميات.

وكانت أحداث كيدال 1963 أول اختبار حقيقي يمتحن مدي صلابة العقد الاجتماعي الهش للدولة الوليدة وهي تلفظ أحشاءها الداخلية في مشهد دراماتيكي متكرر يعيد إلي الأذهان صورة الثورة عندما يرتد سقط زندها إلي الداخل فتشرع في أكل أبناءها الواحد تلو الآخر، وجاءت التشريعات الضريبية المجحفة التي سنها نظام موديبوكيتا بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس الطارقية المترعة خيبة واحتقانا، تشريعات كانت خزائن الدولة المالية الفارغة في مسيس الحاجة إليها فيما اعتبر الطوارق أنفسهم أول المستهدفين بها في قطعان ماشيتهم التي هي أخص وأغلي ما يملكون وخصوصا الإبل حيث تحملت الوعاء الضريبي الأكبر وكان أكثر شيء أثار غضبهم هو الطريقة الاستفزازية التي نفذ بها الجنود الماليون ذلك القرار والقسوة والفظاظة التي عاملوا بها الأهالي المحليين حين أرغموهم على دفع ضرائب مجحفة عن مواشيهم وأخذوا ينتزعون مؤنهم وأغراضهم من مقتنيات الأهالي وأثاث خيمهم، ولم يتأخر الرد الطارقي كثير عما اعتبروه مساسا مباشرا بكرامتهم وتجاوزا لكل الخطوط الحمر في حياتهم لا يقل في مداه وقسوته عما ألفوا على أيام المستعمر فمكان منهم إلا أن شرعوا في مهاجمة الجنود الماليين ومحاولة طردهم من مدنهم وقراهم ، وتحسبا لانتفاضة غير محسوبة دفعت الحكومة المالية بتعزيز أمنية كبيرة إلى أزواد وخصوصا كيدال ، فنجحت في قمع الانتفاضة بعنف ودموية إعداما للرجال والأطفال واغتصابا للنساء إلى جانب إحراق المساكن والأراضي الزراعية وإتلاف الممتلكات وقد التجأ أغلب قادة الانتفاضة المذكورة إلى بعض دول الجوار وخاصة الجزائر نفسها التي احتمى في أراضيها العدد الأكبر منهم غير أن تلك البلدان وفي مقدمتها الجزائر سرعان ما بادرت إلى تسليم أولئك القادة وكانوا في حدود الثلاثين ومن أبرز من سلمهم الجزائريون: الأمير محمد عالي الأنصاري والزعيم القبلي زيد بن الطاهر...

وهي الخطوة التي أثارت أسف واستغراب الطوارق لكون القيادة السياسية الجزائرية هي وريثة شرعية الثورة الجزائرية التي آزرها الطوارق بالرجال والعتاد، غير أن العارفين بخبايا الشأن الجزائري والسياق الإقليمي الخاص الذي وردت فيه تلك الخطوة الجزائرية اللافتة اعتبروا أن تلك الخطوة جاءت انعكاسا لمواقف الرئيس بن بلا الذي وصف الطوارق "بأنهم كذابون وخارجون على القانون ومتمردون على دولهم" ، أكثر مما هو ترجمة حقيقية للسياسة الجزائرية الرسمية.

تراوحت مصائر القادة المسلمين في تلك الأحداث ما بين الإعدام الفوري من دون محاكمات والاعتقال التحكمي لفترات طويلة وفي ظروف سجن مزرية.

وبتلك الاعتقالات والإعدامات دخل الطوارق في مرحلة أخرى من التهميش والنسيان أشبه "بالبيات الشتوي القسري"، امتدت لعقود لم يتغير خلالها نمط المعاملة رغم اختلاف نظم الحكم المتعاقبة.

وقد لخص مظالم الطوارق خلال تلك الفترة القيادي الطارقي وزعيم حركة تحرير أزواد حم بن عمر في النقاط التالية:

- التمييز وعدم المساواة بين مواطني البلاد سواء السود منهم الذين تسميهم الحكومة المالية بالمواطنين المتمدنين، والطوارق الذين تسميهم بالبدو البيض في الحقوق والواجبات.
- حرمانهم من تقلد الوظائف الهامة في الدولة.
- إبعادهم عن قوات الجيش والشرطة ويقدم ابن عمر كدليل على ذلك حظر رتبة الضابط على البيض عامة (طوارق وعربا) فمثلا حاول شباب من الطوارق في العام 1984 الدخول إلى مدرسة (كاي) العسكرية لتخريج الضباط ففازوا في المسابقة والكشف الصحي إلا أن مدير المدرسة رفضهم بل وأقال الضابط الطبيب الذي منحهم الشهادة الصحية.
- اعتبار السلطات المالية المنطقة الصحراوية في بلادهم منطقة غير وطنية بالمعني الكامل للكلمة بمعنى أنها تجد أن المنطقة يقطنها مواطنون غير وطنيين يهدفون إلى فصلها يوما ما من

الأيام عن بلادهم الأمر الذي يدفعهم إلى تهميشها وجعلها لا تدخل ضمن المشاريع الإنمائية للبلاد.

- مصادرة ممتلكاتهم دون حق أو سند حقوقي.
- التباين الثقافي بين سكان الصحراء ذوي الثقافة العربية الشرقية والسود ذوي الثقافة الغربية وبالأخص الفرنسية (حسب تعبيره) وما ينتج عنه من صراع بين قيم الحضارتين.

**وحدة التاريخ وثنائية الجغرافيا:**

عدا التجانس الكبير في الجغرافيا الطبيعية من حيث المكونات والمجال والتماثل حتى في بعض المسميات والمواقع ، تتقاطع مكونات الجغرافيا البشرية هي الأخرى بين الشعبين في كل موريتانيا وأزواد حيث تشكل الروابط الاجتماعية والثقافية مع وشائج القربي والرحم لوحة فسيفسائية فريدة تمتزج فيها دماء الشهداء بمداد العلماء، ترتسم علي أديم الصحراء حيث تعانق حبات الرمل الحنونة سنابك خيل أصيلة زرعتها إيمانا ونماء، ولم تشكل يوما من الأيام عائقا يحول دون التلاقي والتبادل وكانت حواضر(تادمكه) وتمبكتو على الجانب الآخر ضريبات لشنقيط وولاته وودان وظلت قوافل التجار إلى جانب جموع طلبة العلم تتنقل بأريحية وسلاسة بين تلك الحواضر وهي الرياضة الذهنية الممتعة التي مارسها العلماء أنفسهم علاوة على طلبتهم فالعلامة المربي الشيخ سيديا الكبير نفسه انتقل إلى أزواد قادما من شنقيط وتيشيت وولاته، وعالم آخر بقامة أحمد باب حمل لقب التمبكتي قادما من ودان في تمبكتو نفسها[1] وفي المقابل كانت الحواضر العلمية الموريتانية تشكل موئلا للكثير من علماء أزواد فالعلامة المربي الشيخ سيد المختار الكنتي انتقل بدوره إلى موريتانيا وتمني الإقامة بين ظهراني أهلها لولا اعتزامه الرحلة إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج[2].

واستمرت الصلات بذلك المستوي من الحميمية والتثاقف الثر لقرون لم يعكر صفوها سوى دخول المستعمر إلى المنطقة، حيث خطط على ما يبدو لغزو موريتانيا من عمقها الاستراتيجي آنذاك أزواد حيث وصلها الحاكم الفرنسي السابق لإقليم موريتانيا كزافي كبولاني ضمن[3] استراتيجية غريبة من منظور اليوم، فلم يكن يدور في خلده أن يغزو موريتانيا انطلاقا من الشرق فإن لم يكن خبيثا فهو ليس بالأبله...

---

[1] الحلقة الخامسة من سلسة مقالات للأستاذ محمد يحظيه ولد أبريد الليل بعنوان : الظلم والبؤس.

[2] الطرائف والتلائد في كرامات الشيخين الوالدة والوالد: للشيخ سيد محمد ولد الشيخ سيد المختار الكنتي.

[3] الحلقة الأولى من المقالات السابقة وعنوانها :الحيوان غير السياسي.

فعبر التاريخ الطويل والمتقلب لغرب الصحراء كانت حركات الاجتياح المنطلقة من الشرق إلى الغرب نادرة جدا، فكانت حركة الرجال تتم دائما من الشمال إلى الجنوب أو من الغرب باتجاه الشرق وبصورة استثنائية حصلت بعض الاختراقات المنطلقة من الجنوب باتجاه الشمال، حركة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين..

من غير شك أن كبولاني الذي أصبح فيما بعد حاكما لموريتانيا من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية حاول توظيف الخبرة السياسية والثقافة الاجتماعية التي اكتسبها خلال فترة اكتشافه للمجتمع الأزوادي في تدبير المرحلة الموريتانية من الاحتلال حيث اعتمد في جزء من إستراتيجيته على موادعة قادة العشائر والمجموعات القبلية استنساخا لتجربة مماثلة طبقها الفرنسيون بنجاح في أزواد، غير أن الاغتيال المبكر لكبولاني على يد المجاهد سيدي ولد مولاي الزين رجح الكفة لصالح الجناح الذي تبني خيار الحسم العسكري داخل الإدارة الاستعمارية وهو ما حصل بالفعل حيث تصاعدت حدة البطش والتنكيل الموجه من جانب الاستعمار في مقابل اشتداد عمليات المقاومة التي شملت معظم أرجاء الوطن وفيما انهمكت المقاومة الوطنية في محاولة تضميد جراحها الداخلية ظل الجرح الدامي في أزواد ينزف بغزارة.

وبعد توقف العمليات المسلحة في البلاد إثر معركة "أمجيك"، وتوصل الفرنسيين إلى هدنة تكتيكية مع بعض زعماء الطوارق نصت أهم بنودها على:

- تدخل القوات الفرنسية لتسوية أية مشكلة في المنطقة.
- عدم إرسال أبناء الطوارق إلى جبهات وعدم تجنيدهم.
- عدم إجبار أطفال الطوارق على الدراسة في المدارس الحكومية.
- عدم فرض الاختلاط بين الطوارق والفرنسيين.

ركنت الأطراف المختلفة إلي العمل السياسي مغلبة الخيار السلمي للمقاومة، وبقي الفرنسيون يديرون الجزء الشرقي من البلاد الذي الحق بأزواد من مالي حتى أحداث 1940 القبلية

الدامية التي عرفتها المنطقة فقرر الفرنسيون إلحاقه إداريا بموريتانيا لتسهيل السيطرة عليه، غير أن ذلك الفصل الميكانيكي الفج بين الأشقاء على جانبي الحدود الوهمية المصطنعة لم ينس الطوارق حقيقة انتمائهم ولا طبيعة روابطهم الروحية والعرقية مع الطرف الآخر وهو ما برز بقوة أثناء محاولاتهم استثمار أجواء الانفتاح السياسي لفرنسا على مستعمراتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية عبر مطالبتها بإلحاقهم بموريتانيا ضمن مطالبهم العامة بتحديد وضعهم السياسي حيث تبنت ذلك المقترح بعض الأطراف في الإقليم عربا وطوارق إلى جانب مقترحات أخرى بالانضمام إلى المغرب علاوة على المقترح المتعلق بفكرة تأسيس كيان مستقل والمقدم من قبل الفرنسيين وهي المطالبة التي لم تلق التجاوب المرجو من النخبة السياسية الموريتانية كما يقول الألوسي"[1] شهدت علاقات الطوارق مع الأنظمة الحاكمة في مالى الكثير من التقلبات، وفي التاريخ غير القديم سنتذكر فكرة بعض القبائل الطارقية بانضمام إقليم أزواد في وقت من الأوقات إلى موريتانيا غير أن التراجع في مواقف بعض قادة موريتانيا تجاه القضية الطارقية دفعت قادة هذه القبائل إلى اتهام الأنظمة بالتراخي والتذبذب في المواقف مما دفعهم إلى التخلي عن فكرة الانضمام للدولة الموريتانية واستبدالها بخلق ظروف أفضل للعلاقة مع السلطة الحاكمة".

تخلَّى السياسيون الموريتانيون إذن عن أزواد وأهلِه عربا وطوارق وتركوه فريسة لأطماع المستعمر وحسابات دول الجوار، ولم يسجل له أدني حضور يذكر على الأجندا السياسية لهؤلاء إبان تحضيرات الاستقلال وبعيده كذلك، حيث بقي النسيان والصمت المطبق سيد الموقف حتى أثناء أحداث كيدال الدامية[2] "التي لم تحرك مشاعر الدولة الموريتانية، مودي كابو كيتا رئيس مالي حينها فهم أن حكومة تجبن عن أن تستطلع عن ما يقع لبني جلدتها هي حكومة (تافهة) هو نفسه لو كان

---

[1] الألوسي مصدر سبق ذكره.

[2] محمد يحظيه ولد أبريد الليل: مرجع سبق ذكره.

في مكان هذه الحكومة سيكون له تصرف مختلف فانتهز الفرصة واستدعي المختار ولد داداه في (خاي) عام 1963 في مؤتمر من أجل رسم الحدود وفي الواقع هو اقتطاع أرض كبيرة من موريتانيا.

في مؤتمر (خاي) طرح مودي بو كيتا بادئ ذي بدء شروطه غير القابلة للمساومة، حاول الوفد الموريتاني أن يناقش ويمنطق ويشرح ويفهم لكن كل ذلك زاد توتر وانزعاج الرئيس المالي فغادر القاعة على وشك الانفجار من الغيظ بعد أن ضرب الطاولة بكامل قوة قبضته مؤكدا أنه لن يعود إلى قاعة الاجتماع إلا بعد التسليم بمطالبه بلا قيد ولا شرط..

في النهاية ومن غير أن نعرف بمبادرة من عاد مودي بوكيتا إلى طاولة المفاوضات ووجد الموريتانيين يميزون الليل من النهار ووضعوا توقيعهم المطلوب على الأوراق كانت نتيجة ذلك فقدان ثمانين ألف كلم$^2$ مربع من الحوض الشرقي على الأقل لأننا لا نعرف إلا معطى واحدا عند الاستقلال وهو أن مساحة البلاد مليونا ومائة وتسعة وستين ألف كلم متربع المساحة الموريتانية بعدما اقتطع منذ 1963 غير معروفة حتى الآن... هناك قاموس يوثق به صادر سنة 2000 يحدد مساحة البلاد بمليون وواحد وثلاثين ألف كلم$^2$.

**إلى السلاح من جديد:**

سرعان ما ذكت جذوة الحرب مجددا عند أول نفخة في رماد أزواد وجمره المتلمظ على يد مقاتلين وأصحاب قضية عجموا الحروب وعجمتهم فأعادوها جذعة كما يقال، إنها قضية انتفاضة "منكا" الأولى عام 1990 والتي أطلقت شرارة تمرد جديد في إقليم أزواد بعيد عقود طويلة من الاسترخاء الأمني لم تكن أكثر من استراحة محاربين وبعد أحداث كيدال 63 وجفاف السبعينيات الماحق، تنادي الرفاق إلى السلاح ثانية ونظموا صفوفهم عبر شن حرب عصابات[1] تميزت بالاحتراف حيث صبحت كتائبهم الجيش المالي في العديد من القواعد العسكرية التي استولوا عليها دون خسائر تذكر وفقدت القوات الحكومية سيطرتها بسرعة على تسعين بالمائة من مناطق الإقليم وانفجرت الاحتجاجات في الجنوب وتأثر الشارع الزنجي بشعارات الثوار الطوارق حتى إن شعار "كلنا طوارق" تردد كثيرا في العاصمة والمدن الجنوبية الكبرى من البلاد أثناء الاحتجاجات الشعبية والطلابية المطالبة بسقوط نظام موسي اتراوري .

وقد شاركت في تلك الانتفاضة القوية حركات مسلحة عدة ضمت أجنحة عسكرية لأول مرة بعدما ظل العمل السياسي السلمي الواجهة الأبرز لمعظم تلك الحركات التي انضوت في البداية تحت لافتة "مجلس قيادة حركات أزواد الموحدة والمعروفة اختصار بـ ( M.F.U.A) وهو إطار تنسيقي لصهر العمل المشترك ومنع الاحتكاكات بين إخوة القضية ورفاق السلاح ومن أبرز الحركات التي شاركت في تلك الأحداث وممن تمثل ثقلا عسكريا وجماهيريا:

**1.** الحركة الشعبية لتحرير أزواد (M.P.A) وهي بمثابة الحركة الأم لباقي التنظيمات الأخرى ويعود تأسيسها للعام 1987 ومن أبرز القادة المؤسسين الأوائل : حم بن عمر وإياد غالي هذا الأخير الذي تزعمها لاحقا، واتسمت بتوجهات قومية وقد لعبت الدور الأبرز في تمرد

[1] الحافظ ولد الغابد: "حرب الطوارق بين طموح الاستقلال وسيناريوهات التوظيف الدولي" (مقال).

1990 وخاضت حرب عصابات شرسة انطلاقا من معقلها في جبل (تاغازغان) الواقع بين كيدال وتمنراست بالجزائر.

2. الحركة الإسلامية العربية لتحرير أزواد (F.I.A.A) وتأسست في العام 1978 ومن أبرز قادتها رئيسها أحمد ولد سيدي محمد وهو دبلوماسي مخضرم عمل في موريتانيا على عهد الرئيس المختار ولد داداه وهو معروف بميوله الإسلامية إضافة إلي الذهبي ولد أميا الذي يقود الجناح الليبرالي في الحركة وقد قاد انشقاقا ضدها إضافة إليهما هناك القائد العسكري أبو بكر الصديق ولد محمود دحمان .

3. الجبهة الشعبية لتحرير أزواد (F.P.L.A) ويقع مقرها في منطقة (منكا) و(تايكريت) شرقي غاو ويقودها عيسي آق سيد محمد فيما يتزعم جناحها المدني العسكري سيدي محمد المعروف ب (جيمي الثائر)، ولم توقع هذه الجهة التي تعتبر الأكثر راديكالية بين الجبهات اتفاقيات السلام مع الحكومة المالية مما أكسب زعيمها ألقا جماهيريا.

4. الجيش الثوري لتحرير أزواد (A.R.L.A) ويرأسه الدبلوماسي عبد الرحمن كلا وهو الأقل شهرة بين الفصائل وحديث التأسيس ـ نسبيا ـ

وقد جاءت ردة فعل الجيش المالي عنيفة وانتقامية علي تلك النجاحات العسكرية والإعلامية التي أحرزها الطوارق المنتفضون، وكان المدنيون قبل المسلحين الخاسر الأكبر والضحية المباشرة لعمليات الجيش المالى العسكرية والمليشيا الأهلية التابعة له والمعروفة (بغند غواي) والتي تتشكل أساسا من عرقية الصونغاي حيث نزح مئات الآلاف من مدنهم وقراهم إلي الجوار المالي: الجزائر وموريتانيا وليبيا وبوركينافاسو، أوصلت بعض التقديرات أعدادهم إلي السبعمائة ألف.

وقد حاول قادة الحركات المسلحة في الإقليم استثمار النجاحات التي حققوها في محادثات "تمنراست" التي وقعت في عام 1991 بوساطة من الحكومة الجزائرية وهو ما تم بالفعل حيث انتزعوا اعترافا ثمينا من الرئيس المالي الأسبق موسي اترواررري بقضيتهم ووقعوا معه اتفاقية سلام

تنص علي منحهم حكما ذاتيا علي أن يتم البت لاحقا في آلياته غير أن معارضة الجيش إضافة إلي قطاع عريض من الطبقة السياسية المالية للاتفاقية أجهضها قبل أن تري النور على أرض الواقع وهو ما ترجم في انقلاب92 الذي قاده الجيش المالي ضد الرئيس اتراروي وألغي على إثره الاتفاقية مغلبا الخيار العسكري من جديد مما شكل انتكاسة قوية لجهود استتباب السلام في الإقليم وزعزع ثقة الطوارق في مصداقية الوعود التي يطلقها الساسة الماليون وهو ما عكسته جليا طبيعة التعاطي مع اتفاقيات السلام اللاحقة التي أبرمها الطرفان في سنوات 96 و06 و09 ، حين لم تساوي قيمة الحبر الذي كتبت به فيما تبادل الطرفان المالي والطارقي الاتهامات بشأن خرق بنودها حتى إذا لاحت بارقة أمل ركب الرجال الزرق أسنة رماحهم ملبين نداء الحرية والكرامة فكانت (منكا) الثانية نقطة الصفر لبداية الانتفاضة الثالثة الحالية. وكأنها دمشق في بيت نزار:

كتب الله أن تكوني دمشق  بك يبدأ وينتهي التكوين

**هل بات حلم الاستقلال قيد المنال؟**

جرت مياه كثيرة من تحت الجسر منذ أحداث منكا 90 وتغيرت أسماء ومسميات وظهر لاعبون جدد وغاب آخرون وتبادل العديد من رفاق السلاح المواقع والأدوار، ودار الزمان دورته بعمر جيلين وظلت القضية الأزوادية حية في وجدان أهلها برغم مساعي النسيان والتغييب التي تلاقت عندها إرادة ومصالح أكثر من طرف إقليمي ودولي تزعجه رؤية كيان مستقل باسم الطوارق سرعان ما يتحول -في نظره- إلي بيضة قبان يسعي الكل إلي احتضانها والتأثير في دورة حياتها حتى لا تشكل الخميرة الملاءمة لتفريخ المزيد من الكتاكيت في غابة اعتاد " كبار الديكة " جعلها محمية خاصة بهم، غير أن رياح الربيع العربي العاتية جرت هذه المرة بما لم يكن في حسبان ملاك الحدائق الداجنة بدول الساحل الإفريقي وممن طبقوا نصيحة سيدهم الفرنسي (كلوزيل) ومقتضاها أنه "لا بد أن لا يخرج الطوارق من إطار يختلف عن حديقة حيوانات، حين حطم الطوارق أسوار الحديقة وتنسموا عبق الحرية في فضاء الصحراء الطلق وقد أنعش تهاوي صروح عتيدة من حولهم الآمال في بعث حلم الاستقلال ، فكانت منكا الثانية التي خططت لها ونفذتها بنجاح الحركة الوطنية لتحرير أزواد فجر الثلاثاء 17 من يناير العام الماضي وهي العملية التي كسر حاجز الخوف النفسي وشجعت لاعبين جدد على الدخول على خط المواجهة مع وحدات الجيش المالي ، فتوالي سقوط مدن وبلدات الإقليم الواحد تلو الأخرى مثل تهاوي قطع الدومينو عندما تفقد انتظامها بانهيار القطعة الأولى منها ليستيقظ أهل أزواد على فجر جديد مختلف تماما في الطعم والمذاق عن تلك الصباحات الرتيبة المتثاقلة في مرورها كغيوم الشتاء العبوسة الكالحة.

تغيرت الخارطة الجيوسياسية للمنطقة إذن وسط فرز إيديولوجي وعرقي حاد واصطفاف اقليمي ودولى لافت وتم خلط أوراق اللعبة مجددا وبشكل غير مسبوق حيث غابت أطراف إقليمية مؤثرة كانت تمسك بـ70٪ من أوراقها وتراجع دور أخرى ودخلت على الخط أخري وبدا أن التحكم في سفينة الإقليم الجانحة أصبح من الصعوبة بمكان مما يتطلب تضافر جهود أكثر من طرف

إقليمي ودولي خصوصا إذا ما أخذنا في الحسبان أن القوي والحركات التي أفرزها الحراك الحالي هي في معظمها قوى صاعدة وغير تقليدية ويصعب بمكان التكهن بردات فعلها أو طبيعة ما تعتزم فعله في المستقبل، فما يبدو للعيان قد لا يكون أكثر من رأس جبل الجليد، فيما تبقي المعلومات المتعلقة بما يعتمل داخله مشوشة وغامضة وبالرغم من ذلك لا تخطئ عين الراصد لما يجري علي الساحة في أزواد ملامح مشهد سياسي آخذ في التشكل يهيمن عليه التيار الإسلامي الجهادي إضافة إلي آخرين حيث تتقاسم السيطرة علي الإقليم أطراف رئيسية ثلاث هي:

**1ـ الحركة الوطنية لتحرير أزواد:** وتشكلت من اندماج حركتين هما الحركة الوطنية الأزوادية وتحالف الطوارق شمال شرقي مالى للتغيير والتي ترأسها القائد الطوارقي الراحل إبراهيم باهنكا حيث وقع وثيقة الاندماج خلفه حم آك سيد أحمد وانضم إليهما لاحقا القائد العسكري القادم من ليبيا بالرجال والسلاح محمد آك ناجم وتضم الحركة في تركيبتها توماستيين (قوميين في اللغة الطوارقية)[1] وليبراليين ومستقلين وآخرين لا يعرف عنهم انتماء إيديولوجي ، وتتشكل في غالبيتها من قبيلة "الإيدنان" القوية وقد تأسست في الأول من نوفمبر 2010 ويتولي أمانتها العامة حاليا محمد أك علي ، ويعود لهذه الحركة الفضل في إطلاق شرارة الانتفاضة الثالثة الرئيسية الحالية حيث أحكموا سيطرتهم في هجوم خاطف علي (منكا) ثالث أكبر مدن الإقليم، وبعدها (اتساليت) ثم (تيسيت) . وقد أعلنت استقلال إقليم أزواد في السادس من أبريل 2012 وقد نفذت الحركة في الآونة الأخيرة انسحابا وصفته بالتكتيكي من معظم المدن التي تسيطر عليها تحت ضغط الفصائل الإسلامية المنافسة وهو ما ينذر باشتعال الاحتراب بين رفاق الأمس أعداء اليوم.

[1] محمد محمود ولد أبو المعالي / مقال : إمارة أزواد ا لسلفية منشور علي الجزيرة نت

2- **حركة أنصار الدين**: ويرأسها إياد آك غالي المنتمي إلي قبيلة إفوغاس إحدى أبرز قبائل الطوارق وهو شخصية مثيرة بقيت الثابت الوحيد في المعادلة الأزوادية وسط الأحداث المتغيرة من حولها بدأ سيرة نضاله قوميا معتدلا وانتهي جهاديا متطرفا، حارب بشراسة في التعسينات ضد الجيش المالي قبل أن يميل إلي المسالمة والموادعة ويستطيب المقاعد الوثيرة والمكاتب المكيفة قنصلا لمالي في جدة وهي الفترة التي سيعتنق خلالها فيها الفكر السلفي الجهادي ويقرر العودة إلي الصحراء وإلي جبال (تاغارغان) التي شن من انطلاقا منها حرب عصابات قوية ضد الحكومة المالية في التسعينات تحت يافطة الحركة الشعبية لتحرير أزواد التي انخلع من عباءتها الآن مستبدلا إياها بالفصيل الجديد "أنصار الدين" وهي برأي البعض تشكل الواجهة السلفية الجهادية داخل الطوارق وقد تمددت الحركة في الإقليم عسكريا على حساب الحركة الوطنية لتحرير أزواد التي دخلت معها في مواجهات متعددة وقد وظف إياد آك غالي رصيده الجماهيري وألقه النضالي إضافة إلي مركزه القبلي الوازن في حفر "أجمة" خاصة به وبحركته في أي تسوية مستقبلية قد تطال الإقليم الذي يجلس القرفصاء على برميل زيت متقد.

3ـ **حركة التوحيد والجهاد**: وتأسست خلال العام الماضي ويقودها عسكريا سلطان ولد بادي إضافة إلي مرشدها الروحي القائد البارز حماد ولد محمد خيرو والمكني بأبي القعقاع وهي[1] الواجهة السلفية داخل القبائل العربية الأزوادية وقد انشقت عن تنظيم القاعدة بعد رفض الأخير طلبهم تأسيس كتيبة خاصة بالمقاتليين من أبناء القبائل العربية في أزواد أسوة بسرية الأنصار في تنظيم القاعدة التي تضم المقاتلين الطوارق.

وقد أحرزت هذه الحركة نجاحات عسكرية خاطفة وسعت مع غيرها لتأسيس مجالس شرعية لإدارة المدن المحررة وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ويقف تنظيم القاعدة في بلاد المغرب العربي

[1] محمد محمود ولد أبو المعالي: "إمارة أزواد ا لسلفية" (مقال منشور علي الجزيرة نت).

فارضا نفسه وصيا روحيا علي الفصيلين الأخيرين بل وعلي المشروع السلفي الجهادي في المنطقة برمتها باعتباره صاحب قصب السبق في إدخال الدعوة السلفية الجهادية إلي المنطقة ويقر له الفصيلان بالأقدمية في ساحة الجهاد والدعوة السلفية وإلي منظريه والمتصدرين للفتيا فيه يلجئون إلي لحل القضايا الفقهية والعلمية الشائكة.

هل يملك الكيان الوليد بأزواد مقومات الاستمرارية والبقاء وهل ستسمح حسابات دول الجوار الاقليمي له أن ينعم بالنمو والاستقرار؟ وهل سينجح "رفاق السلاح" في تدبير خلافاتهم الداخلية بالحسنى أم سيسقطون في معركة الفتنة والاحتراب الداخلى؟ ومن المستفيد مما يجري على الساحة الأزوادية ومن يحارب باسم من ومن وكالة لمصلحة من؟ وهل ما جرى هو نهاية دراماتيكية متوقعة لعقود مريرة من كفاح شعب طال تشوفه للحرية والاسستقلال أم هو مجرد تنفيذ لسيناريو نسجت خيوطه بعناية أطراف اقليمية وأخرى دولية سعت لتوظيفه في ضربة استباقية محسوبة استهدفت قطع الطريق على أي تمدد متوقع للجماعات السلفية المقاتلة لملأ الفراغ الأمني الحاصل بالمنطقة؟

ذلك طرف من أسئلة كثيرة يمكن أن تطرح في سياق التطورات المتلاحقة في الإقليم وتفاعلاتها المختلفة التي طالت أكثر من طرف ودفعت كثيرين إلى إعادة حساباتهم مجددا بشأن "القضية الأزوادية" والتى يبدو أنها قد خرجت من نطاق المحلية إلى دوائر التدويل فعدا دول الجوار الاقليمي، الجزائر، موريتانيا، النيجر، أبدى الامريكيون والفرنسيون إلى جانب الأطلسي اهتماما متزايدا بالقضية عكسه حجم الاجتماعات ومستوى التمثيل الرسمي فيها، فمجموعة دول الساحل والمعروفة اختصارا "بالإيجاد" كانت السباقة في هذا المجال حيث تداعت عقب عملية "منكا" إلى عقد اجتماع سريع على المستوى الوزاري بالعاصمة انواكشوط في الرابع والعشرين من يناير مطلع العام الماضي، حاولت خلاله النأي بنفسها عن الحدث واصفة إياه في تصريحات على لسان وزير الخارجة الموريتاني (حمادي ولد حمادي) بالشأن المالي الداخلي. وهو الموقف الدبلوماسي السلبي الذي

وصفته بعض الأطراف المالية بالتمالئ مع التمرد وجاءت تصريحات وزير الخارجية الموريتاني لإذاعة فرنسا الدولية بعد أيام من الاجتماع المذكور لتغذي الشكوك المالية بهذا الخصوص حين أوضح في اجابة له على سؤال يتعلق بالمقارنة بين نشاط الجماعات الاسلامية المسلحة بالمنطقة وبين مطالب الطوارق بأن هؤلاء لم يحاربوا دولة أجنبية وبأن لديهم مطالب واضحة بشأن الهوية والحصول على نصيبهم من السلطة والثروة وعلى خلفية تلك التصريحات وما رافقها من استقبال وصف بالحفاوة من السلطات الموريتانية للاجئين الأزواديين إضافة إلى يواء بعض العناصر القيادية في الحركات المتمردية والسماح لها بحرية التنقل والإتصال بوسائل الإعلام، دشنت وسائل اعلام مالية حملة انتقادات واتهامات واسعة ضد الجانب الموريتاني بل واستضافت [1] في الحديث عن مخطط قدمته المؤسسة العسكرية الأمنية الموريتانية للمتردين الطوارق من أجل إقامة كيان مستقل لهم في منطقة أزواد.

وفي ذات السياق نسبت بعض وسائل الإعلام تصريحات للرئيس الموريتاني ولد عبد العزيز بشأن أحقية الطوارق في الحصول على حكم ذاتي كما تطابقت بالحديث عن وجود اتصالات أمنية رفيعة بين الطرف وعناصر نافذة من قيادات التمرد الأزوادية، تلقى خلالها الأزواديون رسائل طمأنة كانت منتظرة من الجانب الموريتاني الذي حصل على وعد بالتعاون مستقبلا بشأن الترتيبات الأمنية التي يجرى التحضير لها بالتنسيق مع ما يعرف بهيئة الأركان المشتركة التي تضم إلى جانب موريتانيا كل من الجزائر والنيجر حيث يجرى الحديث في هذه الآونة عن تجهيز قوة افريقية مشتركة قوامها 3500 جندي للتدخل في الإقليم وذلك وسط نداءات متزايدة من القيادات السياسية الحالية في مالى والمجتمع الدولي كان من آخرها دعوة رئيس الوزراء المالي موديبو ديارا في التاسع والعشرين من سبتمبر الماضي للدولة الغربية وعلى رأسها فرنسا للتدخل العسكري في الشمال المالى ضد قوات التمرد عبر ارسال طائرات مدعومة بقوات خاصة وهي النداءات التي يبدو أنها وجدت آذان صاغية

[1] الباحث: الحاج ولد ابراهيم مقال: أزمة الشمال المالي.

لها لدى الجانب الأمريكي –حتى الآن– فقج أفاد مصدر أمريكي [1] في تصريح أدلى به الثلثاء 3–10–12 أن مسؤولين في إدارة الرئيس أوباما قد عقدوا سلسة من الاجتماعات السرية لبحث امكانية القيام بعمل عسكري منفرد شمال مالي ونسبت صحيفة الواشطن بوست إلى مسؤولين أمريكين لم تسمهم القول أن هذه المشاروات نظرت في التهديد الذي يشكله تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الاسلامي وركزت على بحث السبل الكفيلة بمساعدة جيوش دول المنطقة على مواجهة القاعدة وامكانية التدخل الأمريكي المباشر في النزاع إذا ما استمر الوضع الحالي ونسبت الصحيفة إلى مسؤول امريكي كبير في مجال مكافحة الإرهاب شارك في المحادثات القول إن واشنطن تدرس عدة خيارات من بينها نشر طائرات امريكية بدون طيار في المنطقة للقيام بعمليات عسكرية في مالى شبيهة بتلك التي تقوم بها في اليمن وعلى الحدود بين افغانستان وباكستان.

كان جونى كارسون أعلى مسؤول امريكي في قسم شؤون افريقيا في وزارة الخارجية الأمريكية قد اعلن قبل ذلك التصريح بيوم استعداد امريكا لدعم تدخل عسكري "معد بشكل جيد" تقوده دول افريقية في شمال مالي من أجل القضاء على المتمريدن الاسلامين المتطرفين المرتبطين بتنظيم القاعدة.

[1] موقع وكالة الأخبار المستقلة –الالكتروني–.